قراءة في كتاب:

(**ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر**) للدكتور عبد العزيز الأهواني

إعداد

أ / أسماء بنت جود الله بن حميد المخلفي

باحثة دكتوراه بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

الكلمات المفتاحية: [ابن سناء الملك– عبد العزيز الأهواني– التجديد– الانحطاط]

المستخلص

تدور هذه القراءة حول كتاب الدكتور عبد العزيز الأهواني (ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر) وقد كان ابن سناء الملك أحد شعراء العصور التي سميت بعصور الانحطاط، ولذلك فقد جاء الكتاب حول ماهية شعره، وموقعه بين التجديد أو التكرار، وفي هذه القراءة تكلمتُ عن المؤلف في نبذة قصيرة، ثم تناولتُ الكتاب من حيث: موضوعه، وتقسيماته، ومنهج المؤلف، وعرضتُ أهم ما جاء فيه، ثم أبرزتُ مميزاته، وذكرتُ ملاحظاتي عليه.

وقد أوضحت الدراسة ضرورة دراسة شعر العصر قبل الحكم عليه.

مقدمة:

سميت العصور التي تلي العصر العباسي بعصور الانحطاط؛ وذلك لما شاع عنها من ضعف في الأدب والعلم والثقافة، ولذلك من المهم التأكد من مصداقية التسمية وهل هي تنطبق على أدب تلك العصور أم لا؟ يسعى الدكتور عبد العزيز الأهواني إلى الكشف عن ذلك من خلال دراسته لشعر ابن سناء الملك –وهو أحد شعراء الدولة الأيوبية–، وقد جاء كتابه المسمى (ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر) في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: المشكلة اللغوية والعقم.

الفصل الثاني: الابتكار ووسائله.

الفصل الثالث: ابن سناء الملك والموشحات.

وهذه قراءة في الكتاب تناولت فيها: التعريف بالمؤلف، والشاعر، ومنهج الكتاب وموضوعه، وتقسيماته، ومميزات الكتاب وعيوبه.

%%%

التعريف بالمؤلف:

عبد العزيز الأهواني ت ١٤٠٠- ١٩٨٠م.

أستاذ في معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ثم بجامعة القاهرة كلية الآداب، ألَّف جملة من الكتب، وكتب عددًا من المقالات عن تاريخ الفكر العربي في المشرق والمغرب والأندلس، داعيًا إلى الوحدة العربية القائمة على وحدة الثقافة.[i] من أهم كتبه:

- الزجل في الأندلس.
- ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر.

توصيف الكتاب:

طبع الكتاب طبعتين الأولى في مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٢م.

أما الطبعة الثانية ففي دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، سنة ١٩٨٦م، وتقع في ٢٢٦ صفحة، ورجع المؤلف إلى ٤٣ مصدرا ومرجعًا، وقد تنوعت المصادر والمراجع بين دواوين الشعراء، وكتب النقد القديمة والحديثة.

موضوع الكتاب:

يدرس المؤلف شعر ابن سناء الملك وموقعه من الابتكار والعقم، وابن سناء الملك هو: هبة الله بن جعفر بن سناء الملك السعدي، أبو القاسم، القاضي السعيد، ولد سنة ٦٧١هـ وتوفي سنة ٧٣٣هـ، مصري المولد والوفاة، كتب في ديوان الإنشاء بمصر

مدة، وولّاه الملك الكامل ديوان الجيش، له عدة كتب: (دار الطراز) في عمل الموشحات، و(فصوص الفصول) جمع فيه طائفة من إنشاء كتاب عصره، لاسيما القاضي الفاضل، و(روح الحيوان) اختصر فيه الحيوان للجاحظ، وديوان شعر.[ii]

وهو من شعراء الدولة الأيوبية، أحد العصور المسماة بـ " عصور الانحطاط"، ومن هنا يكشف المؤلف عن صدق هذه التسمية، وعن أسباب انحطاط الشعر في تلك العصور، من خلال شعر ابن سناء الملك الذي كان أحد أهم شعرائهم.

منهج المؤلف:

الكتاب كتاب نقدي يعرض فيه المؤلف المشكلة ويسعى للكشف عن مظاهرها وأسبابها محلِّلًا وناقدًا وشارحًا لوجهات النظر المختلفة.

نجد المؤلف كثيرًا ما يستطرد في بسط المفاهيم النقدية من كتب النقد القديمة والحديثة، وقد يذكر وجهة النظر الغربية إذا استلزم الأمر.

ثم يسعى المؤلف إلى استنطاق ابن سناء الملك لمعرفة رأيه حول هذا المفهوم، وذلك من خلال كتابيه: فصوص الفصول، الطراز، وينقل تلك الآراء؛ ثم يمثّل بنماذج من شعره، ويشرح وينقد ويقارن.

فكأنه يقول: هذه آراء العلماء، وهذا رأي الشاعر، وهذه النتيجة الشعرية، وهذه الحقيقة الناقدة.

كما يورد آراء القاضي الفاضل في شعر ابن سناء كما نقلها ابن سناء في كتابه؛ وبهذا فإنه يورد رأي الجمهور الخاص أيضًا.

فمثلا نجده يعرِّف بمفهوم الشعر لدى الغربيين، ولدى النقاد العرب القدامى والمحدثين، ثم يوضّح مفهوم شعراء عصور الانحطاط للشعر، ويورد رأي ابن سناء الملك في ذلك، ثم يطبق ذلك على شعر ابن سناء الملك، ويوضح موطن الخلل.

وقد اتبع المؤلف هذه الطريقة في عرضه لكل أفكاره.

تقسيمات الكتاب:

جاء الكتاب في ثلاثة فصول، وفي كل فصل عدة موضوعات كما يأتي:

الفصل الأول: المشكلة اللغوية والعقم، وتناول تحته:

- اللغة والشعر الغنائي
- موقف الشاعر من التراث
- الجمهور والمشكلة اللغوية
- الركاكة
- الشعر بين العاطفة والعقل
- مفهوم الشعر بين اليوم والأمس

الفصل الثاني: الابتكار ووسائله، وفيه:

- التعليل البلاغي
- الاستعارة والتعليل البلاغي
- التعليل البلاغي والإلغاز
- المفارقات
- المعنى الجديد

- المقابلات العقلية
- التشبيهات المركبة
- تجربة صادقة
- الحكمة في الشعر
- المبالغة بين التكلف والصدق

الفصل الثالث: ابن سناء الملك والموشحات، وفيه:

- الغناء والتوشيح
- أغاني الصوفية
- خرجات التواشيح
- خرجة مستعارة
- بين موشحاته وقصائده

عرض الكتاب:

يبدأ المؤلف المقدمة بحادثة الفرزدق مع عمر بن أبي ربيعة حين صاح قائلا: " هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وبكت على الديار" ومن هنا أثار المؤلف سؤالا مهما: هل يخطئ الشاعر؟ وكيف يكون هذا الخطأ؟ يقول بعد ذلك: " لقد شعرتُ بصدق هذا الوصف وأنا أدرس ديوان ابن سناء الملك وموشحاته، وأرقب جهده العنيف في نظم قصائده وفي محاولة البلوغ بها إلى ما لم يبلغه أقرانه من الشعراء، فأرى كيف انتهى به هذا الجهد إلى العقم، وكيف أن ما حرص عليه أشد الحرص من الابتكار والاختراع كان انحرافًا في فهم الشعر وخطأ في إدراك مهمة الشاعر"[iii].

نلحظ أن المؤلف قد حكم بالضعف على شعر ابن سناء الملك منذ المقدمة، وقد انطلق في دراسته على هذا الأساس.

ويذكر أهمية الدراسة وخطورتها يقول: " ولست –أخيرا– بحاجة إلى أن أذكر أن دراسة عصور العقم في الفن لا تقل خطرًا عن دراسة عصور الازدهار. ولا بد أن نعرف علل الضعف وأسباب العقم إذا أردنا لشعرنا العربي أن يكون شعرًا خصبًا ناميًا حيًّا"[iv].

لخّص المؤلف مشكلة شعر ابن سناء الملك في عدة أمور:

الأمر الأول: ازدواج اللغة بين الفصحى والعامية في ذلك العصر، مما جعل اللغة الفصحى هي لغة الدراسة والعلم والشعر، أما العامية فهي لغة الجمهور الذي لم يعد يتلقى الشعر الفصيح بنفس ما كانت تتلقاه جماهير شعراء العصور السابقة، وكان الفارق بين اللغتين كبيرًا فكأن لغة الشعر لغة أجنبية، و" اللغة إذا كانت منفصلة أو شبه أجنبية بالنسبة للشاعر فقد بطل سحرها في نفسه وسقط التجاوب العاطفي بينه وبينها، فأصبحت عاجزة أو أصبح هو عاجزًا عن أداء هذا التعبير الوجداني في صورته التامة الكاملة الدقيقة"[v].

وضع الشاعر ابن سناء مثلا أعلى للغة الشعر تتمثل في لغة الشعر القديم، وقد فهم الشاعر أن تفوق ذلك الشعر يعود إلى لغته، دون أية مقاييس أخرى؛ وقد نقل المؤلف رأي ابن سناء حين استخدم كلمة (يكنس)، فعلل بأنه أخذها من ابن المعتز (مكنوس)، على الرغم من أن بيته مطلع قصيدة مدح، أما بيت ابن المعتز في السخرية.

يصل المؤلف إلى أن الشاعر " يدور باعترافه وإنتاجه في دائرة الشعراء القدماء ويعيش في دواوينهم. فيحاكي ابن المعتز ويقلده دون ذوق ولا بصر... وأحسب أن دوران القضية في هذا البيت حول لفظ هو (يكنس) دليل على ما نذكره من أن الموقف اللغوي كان وراء عقول هؤلاء الشعراء المتأخرين في حكمهم على الشعر القديم باعتباره فنًا، وفي تقديرهم له دون الاحتكام إلى مقاييس أخرى، لو احتكموا إليها لخلصتهم من عبوديتهم لنماذج الفن القديم أو لخففت عليهم من استبداد تلك النماذج القديمة"[vi].

إن الشاعر بهذه الصنعة لا يقول شعرًا يعبّر فيه عن نفسه أو مجتمعه، ولكنه يقلّد شيئًا لا يشعر به، مما أدّى إلى اتساع الهوة بين شعره ونفسيته، وبين شعره ومجتمعه؛ وبذلك لم يكن الشعر معبرًا عن هوية صاحبه، كما أصبح موجهًا لفئة خاصة أكثرها من الفقهاء والمدرسين وطلاب العلم، وكانت تنظر في هذا الشعر إلى بعض تفصيلاته دون معناه وجوهره، ففتنت بالحلى البديعية، والتفنن في المعاني العقلية، وتوظيف المصطلحات العلمية، فصار همّ الشاعر هو إرضاء هذه الفئة.

يرى المؤلف بأن هذا الجمهور هو ما جعل ابن سناء يملأ شعره بمصطلحات هذه العلوم، " وكان [ذلك] مصدر طرافة عند مستمعي الشاعر من علماء، لأنه كان يفاجئهم بمصطلحاتهم التي تعارفوا عليها في حلقات درسهم، قد خرجت إلى عالم آخر واستقبلتهم مرة أخرى في إطار جديد من الصياغة الفنية المنظومة في هذا الشعر"[vii].

وقد أدى الازدواج اللغوي إلى كثرة الركاكة في شعر ابن سناء الملك، والركاكة " تنشأ عن عدم تمكن الأديب من اللغة التي يكتب بها لافتقاره إلى معرفة أصولها، وإدراك

أسرارها، ولقلة بصره بالفروق الدقيقة بين دلائل المفردات ومعاني التراكيب ومناسبات الجمل وروابطها"[viii].

وتأتي الركاكة في الشعر من ضعف الحس الموسيقي عند الشاعر، ومن اتباعه للمنطق النحوي أحيانا.

استشهد المؤلف بمرثية ابن سناء الملك لأمه:

صَـــحَّ مِنْ دَهْرِنَا وَفَاةُ الحَيَاءِ فَلْيَطُلْ مِنْكُمَا بُكَاءُ الوَفَاءِ

وَلْيَطُلْ مَا عَقَدتُمَاه مِنْ الصَّبْـ ـرِ بَأنْ تَحْلُلَا وِكَاءَ البُكَاءِ

علق عليها بقوله: " وحسب الإنسان أن يقرأ هذه الأبيات ليحس أنها في ألفاظها وجملها أشبه بالنثر المنظوم منها بلغة الشعر، ذلك لأن الشاعر التزم في جملها، وفي روابط هذه الجمل المنطق النحوي فصارت راكدة مستوية الأطراف"[ix].

قارن المؤلف بين أسلوب الشعراء القدامى والمتأخرين في اتباعهم للمنطق النحوي، يقول:

" فإذا قال متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك:

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ القُبُـورِ عَلَى البُكَا رَفِيْقِي لِتِذْرَافِ الدُّمُوْعِ السَّوَافِكِ

فَقَالَ: أَتَـبْـكِـي كُـلَّ قَـبْـرٍ رَأَيْـتَـهُ لِقَبْرٍ ثَـوَى بَيْنَ اللَّوَى فَالدَّوَانِكِ

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الشَّجا يَبْعَثُ الشَّجا فَـدَعْـنِي فَهَذَا كُـلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

فإن الشاعر المتأخر لا ينصرف ذهنه إلى أن يقول (فهذا كله قبر مالك) بل يؤثر أن تكون عبارته (فهذه القبور كلها قبر مالك) أو (فكل قبر من هذه القبور يذكر بقبر مالك أو هي قبر له) أو نحو ذلك من التراكيب"[x].

الأمر الثاني: انحراف مفهوم الشعر لدى الشاعر وشعراء عصره وجمهورهم الضيق؛ فنجد الشاعر يشير بإعجاب شديد إلى شعر ابن المعتز ويذكر محاولاته لتقليده، وذلك لما تميز به ابن المعتز من تشبيهات واستعارات وحلى بديعية، فانحصر مفهوم الشعر لدى أولئك في تلك الأساليب التي عدوها غايات، فأجهدوا عقولهم لصنعها والتلاعب بها، وهذا مما بعّد الشعر عن معناه الحقيقي في تصوير العاطفة أو الرؤية، فارتبط الشعر عندهم بالعقل لا بالقلب.

الأمر الثالث: انحراف مفهوم الابتكار لدى الشاعر وشعراء عصره وجمهورهم الضيق؛ فقد فهم أن الابتكار في الشعر هو الإتيان بالجديد، والزيادة على معاني الأقدمين، وقد ذكر المؤلف بأن الشاعر لا يُطالب بالمعنى الجديد وإنما يُطالب بالأصالة التي تستند على عمق الإحساس، وعلى الاستقلاله في التعبير عن هذا العمق.

وهكذا نجد أنفسنا إزاء مشكلة حقيقية فإذا كان الشاعر يفهم أن تفوق الشعر القديم في لغته دون أي مقاييس أخرى، وأن تميز الشاعر في الإتيان بالغريب والجديد؛ فهو بحسب الأمر الأول يدور في دائرة الأقدمين، ثم يجهد عقله في البحث عن التميز في الإضافة، فتكون هذه الإضافة إما قيد جديد للصورة، أو جمع عدة صور والإتيان بها في نموذج واحد، أو الإكثار من المعاني العقلية، والتعليلات البلاغية، كل ذلك حتى لا يصبح مقلِّدًا في نظره، بل لا بد له من تكلف الابتكار.

ومما ساعد على هذا المفهوم المغلوط للابتكار آراء بعض البلاغيين والنقاد؛ في أبواب السرقات الشعرية مثلا، أو مثل ما نجده عند عبد القاهر الجرجاني حين يدعو إلى البعد الشديد بين المشبه والمشبه به، فكلما كان البعد بينهما أكثر كانت البراعة في التشبيه أقوى وهكذا.

يقول المؤلف تعليقًا على رأي عبد القاهر في حسن التعليل: " فهذه الحماسة التي يستقبل بها عبد القاهر حسن التعليل تترك آثارها في نفوس الشعراء الذين يعكفون على كتب البلاغة، وتؤكد في نفوسهم قيمة ما يصنعونه في أشعارهم من التماس هذه العلل، ومن أن الأساس فيها هو المجهود العقلي وأنها لا دخل فيها للصدق العاطفي، ما دامت شبه الصدق العقلي هي المقصودة. وبذلك كانت البلاغة دفاعًا وتأكيدًا لما انحرف فيه الشعراء ... ويقول [عبد القاهر]: (ومما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة، ويلحق بها في لطف الصنعة قول أبي هلال العسكري:

زَعَمَ البَنَفْسَجُ أَنَّهُ كَعِذَارِهِ حُسْنًا فَسَلُّوْا مِنْ قَفَاه لِسَانَه

لَمْ يَظْلِمُوا فِي الحُكْمِ إِذْ مَثلَوا بِه فَلَشَدَّ مَا رَفَعَ البَنَفْسَجُ شَانَه)

وهذا كما نرى تكلف عقلي استند إلى صورة خارجية في شكل تلك الزهرة، وليس للبيت ... معين يستمد منه شعورًا عاطفيًا ... فكأن الغرابة والإمعان فيها هو الأساس الذي يحتكم إليه عبد القاهر، وهو نفسه الأساس الذي وجدناه في حسن التعليل عند ابن سناء الملك. ومع ذلك فقد جاء في كلام عبد القاهر في هذا الموضع من كتابه: (والإفراط في التعمّق ربما أخلَّ بالمعنى من حيث يُراد تأكيده به)، ولكنه لا يقول هذا واضعًا لمبدأ يصلح به من فساد هذا الاتجاه"[xi].

مظاهر الابتكار لدى ابن سناء الملك:

ذكر المؤلف بأن ابتكارات ابن سناء الملك تتمثل في حسن التعليل، والمفارقة، والجناس، والتورية، والطباق أو المقابلة، والمبالغة، والتذكير بسنن الشعر العربي، أو التلميح بها. وقد تحدث المؤلف عن أهمها: حسن التعليل، والمفارقة، فقد فتن ابن سناء بهما فتنة عظيمة.

ويرى المؤلف بأن حسن التعليل وثيق الصلة بفن الشعر، ولكن بشرط أن يكون وراءه شعور عاطفي، وأن يجعله الشاعر في سياق يهيئ السامع لتصديقه وعدم إنكاره " وأن يخيل له كأنه تجربة نفسية يجوز الشعور بها في لحظة من اللحظات"[xii].

ثم يقارن المؤلف بين الاستعارة وحسن التعليل فالفرق بينهما ليس في الصياغة فحسب، فحسن التعليل قضية منطقية، يتركّز جهد الشاعر عليها، ويركّز انتباه المتلقي لها بأي وجه من الوجوه. ولذلك فالاستعارة أقرب لفن الشعر، لأنها تعتمد على اللمحة الموحية وهي أيسر على الشاعر والقارئ، لأنها تشترك مع العناصر الفنية الأخرى في إثارة العواطف " أما حسن التعليل فهو قضية منطقية أقرب إلى حكم العقل وأشبه بأن يثير التفكير العقلي لدى القارئ قبل الإيحاء العاطفي، وهذا نوع من الانحراف في فهم معنى الشعر"[xiii].

وقد أصبح حسن التعليل عند الشاعر "رياضة عقلية ومحاولة لإثارة ألغاز تحيّر السامعين، ثم يفجؤهم بالحل"[xiv]. ومن الأمثلة لحسن التعليل عند ابن سناء قوله:

أَخَذَ الرَّاحَ حَرَامًا وَتَحَسَّاهَا حَلالا

فهذا لغز حله في البيت الثاني:

طَبَخَتْهـَا نَارُ خَـــدَّيْـــهِ بِنُـوْرٍ يَتَلَالا

فالفقهاء يبيحون الخمر إذا طبخت بالنار[xv].

ثم يقارن المؤلف بين أبيات للمتنبي، وأبيات لابن سناء كلها استندت على حسن التعليل.

لما نزل سيف الدولة الحمداني ذات مرة بخيمته، عصفت الريح بها، فتطير الناس، فعلل المتنبي هذا الحدث الطبيعي بقوله:

فَـلا تُنْـكِرِنَّ لَهَـا صَرْعَةً فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ
وَلَو بُلِّغَ النَّاسُ مَا بُلِّغَتْ لَخَانَتْـهُم حَـوْلَكَ الْأَرْجُلُ
وَلَمَّا أَمَـرْتَ بِتَـطْنِـيبِهَا أُشِيْـعَ بِـأَنَّـكَ لَا تَـرْحَلُ
فَمَا اعْتَمَدَ اللهُ تَقْوِيْضَهَا وَلَـكِـنْ أَشَـارَ بِمَـا تَـفْعَلُ

أما ابن سناء فيعلل ظهور مذنب في السماء بقوله:

أَرَى كُلَّ شَيْءٍ فِي البَسِيْطَةِ قَدْ نَمَا بِعَدْلِكَ حَتَّى قَدْ نَمَتْ أَنْجُمُ السَّمَا

فقد علل استطالة هذا النجم وامتداده بأنه نمو مصدره بركة الممدوح التي جعلت كل ما في الكون ينمو، ولكن الشاعر لم يكتفِ بها فالتمس تعليلا آخر في القصيدة نفسها فقال:

تَخَـالَفَت الأقْـوَالُ فِيْه وَجَمْـجَمَتْ وَلَمْ نَرَ قَوْلا فِي مَعَالِيْكَ جَمْجَمَا
نَرَاكَ نَقَلْتَ الرُّمْحَ فِي الْأُفْقِ رَاكِضًا فَأَبْقَيْتَ زجا ثُمَّ أَلْقَيْـتَ لَهْذَمَا

ومضى الشاعر بعد ذلك يراجع فكرته، فقال:

وَذَا غَلَطٌ مِنْ فِكْرَتِي إِذْ تَخَيَّلَتْ وَذَا خَطَأٌ مِنْ خَاطِرِي إِذْ تَوَهَّمَا
أَبُوْكَ هُوَ النَّجْمُ الذِي مِنْ مَحِلِّهِ تَطَـلَّعَ مُشْـتَاقًا إِلَيْكَ مُسَـلِّمَا

فنجد لدى المتنبي تعليلين، أما ابن سناء فقد حاول مكاثرة المتنبي فجاء بثلاثة تعليلات، على أن المتنبي عبث في التعليل الأول، ولكنه جدّ في التعليل الثاني، أما ابن سناء فكل تعليلاته عبث، وقد حاول المجيء بالمبتكر والغريب. [xvi]

أما المفارقة فقد عرَّفها المؤلف بأنها " تسجيل التناقض بين ظاهرتين لإثارة تعجب القارئ دون تفسير أو تعليل". [xvii]

وقد شغف ابن سناء بهذه المفارقات، ومن النماذج التي أوردها المؤلف قول الشاعر:

نَظَرَ الحَبِيْبُ إليَّ مِنْ طَرْفٍ خَفِيّ فَأَتَى الشِّفَاءُ لِمُدْنِفٍ مِنْ مُدْنِفِ

وَدَنَا فَسَكَّنَ نَارَ قَلْبِي خَدُّهُ أَسَمِعْتُمُ نَارًا بِنَارٍ تَنْطَفِي؟

يعلق عليه فيقول: " نعلم أنه قد استند إلى أصل عقلي يجعل لكل مسبب سببًا، فالمريض سبب شفائه الطبيب، والنار سبب إطفائها الماء أو الشيء البارد، فلما عكس القضية فجعل المريض يشفي المريض، وجعل النار تطفئ النار، كان ذلك جديرًا بالتعجب منه، وجديرًا عنده بأن يصير شعرًا. وهو حين أراد أن تتم له هذه المفارقة أعمل ذهنه، وأطال التفكير والاجتهاد، فكان لابد أن يتخير من الألفاظ التي تدل على الحب – وهي كثيرة في اللغة العربية– لفظَ (الدنف) لأنه يحمل في معانيه اللغوية معنى المرض، وهو المعنى الذي توصف به العيون في الشعر العربي، وكان عليه كذلك في البيت الثاني أن يتخير لفظ (الخد) دون غيره، لما يوصف به الخد من حمرة ستصبح نارا تقابل النار الأخرى التي تخيرها لتكون ممثلة للوعة الحب.

فنحن إذن أمام جهد عقلي يلتمس أصلا منطقيًا، ثم يخالف هذا الأصل، متعمِّدًا إقامة المخالفة على اختيار المادة اللُّغوية التي تمكِّن منه، مستندًا إلى ما تداوله الشعراء قبله من معانٍ معروفة"[xviii]

وقد سعى الشاعر إلى اختراع المعاني الجديدة بطريقة التفكير العقلي، حتى غلب على الفيض العاطفي، كما شغف بالمقابلات العقلية، والتشبيهات المركَّبة، ونحوها.

أما ابتكار الشاعر في الموشحات؛ فإنه حاول مجاراة الأندلسيين وسعى إلى التفوق عليهم بعدة طرق:

الأولى: نظر ابن سناء في موشحات الأندلسيين وتأمل عدد الفقرات أو الأجزاء التي تتكون منها الأقفال والأغصان، فوجد أقصى ما وصلت إليه الأجزاء هو ثمانية أجزاء، فأراد الزيادة عليهم فجاء بأحد عشر جزءا، وعدَّ ذلك إنجازًا يفخر به.

الثانية: حاول اختراع أوزان جديدة " وهو تفنن لا نحس وراءه إلا محاولة للمخالفة بين القوافي والإكثار منها التماسًا لتنظيم جديد لم يجده فيما بين يديه من موشحات... فابن سناء قد اتخذ من فكرة الزيادة مبدأ يظهر فيه براعته ويثبت اقتداره على التجديد والابتكار في فن التوشيح، وهذا مبدأ من فهِم أن بلاغة التوشيح إنما هي في كثرة القوافي وتزاحم الفقرات، وهو انحراف في الفهْم كانت له آثاره في توشيح ابن سناء الملك، فبدا في موشحاته التكلف، ووضح الجهد في النظم، وأصابها من ناحية المعاني تفكك أفقد كثيرًا منها الوحدة النفسية التي نجدها في الموشحات الأندلسية الجيدة".[xix]

الثالثة: كان الأندلسيون في موشحاتهم يجعلون الخرجة (خاتمة الموشحة) إما عامية عربية من عاميتهم، أو لغة أجنبية هي الإسبانية، وكلا اللغتين مستعملة ومفهومة في الأندلس، إضافة إلى أن خرجاتهم قد تكون من الأغاني الشعبية لديهم. فجاء ابن سناء الملك ووضع بعض خرجاته باللغة الفارسية، بعد أن تعلمها تعلمًا، إذ لم تكن الفارسية لغة مفهومة ولا مستعملة في مصر.

لقد فهم ابن سناء الملك أن المقصود هو اللغة الأجنبية -أيًا تكن – فجاء بما لم يأتوا به، ولذلك لم تكن موشحاته معبرة عن نفسه ولا عن مجتمعه، بل هي إعمال عقلي اجتهد فيه متحديا غيره، ولذلك لم تجد الصدى الذي لقيته الموشحات في الأندلس.

وقد سجل المؤلف تجربتين صادقتين لابن سناء الملك وذلك في قصيدة مطلعها:

فَرَّطْتُ فِيْكَ بِسُوْءِ تَدْبِيْرِي فَجَرَى القَضَاءْ بِعَكْسِ تَقْدِيْرِي

يعبر فيها الشاعر عن "شعورٍ خلاصته: أنه تصرف تصرفًا أراد به الاحتفاظ بحبيب فكان هذا التصرف نفسه سببًا في فقدانه هذا العزيز"[xx].

والتجربة الأخرى في رثاء جدّه، وقد كان حينها مريضًا، ومطلعها:

خَانَتْ جُفُوْنِيَ لَمَّا لَمْ تَفِضْ بِدَمِي لَكِنْ وَفَى الجِسْمُ لَمَّا فَاضَ بِالسَّقَمِ[xxi]

مميزات الكتاب وعيوبه:

- يتميز الكتاب بالبسط في توضيح المفاهيم النقدية من خلال عرض الآراء المختلفة العربية والغربية، مثل مفهوم الشعر ومهمة الشاعر، وهل أتى الشعراء القدماء على كل المعاني فلم يبق للمتأخر شيئا؟ وحسن التعليل، والبعد في التشبيه وغيرها.
- يتميز الكتاب بمناقشة مؤلفه للآراء مناقشة تنمُّ عن وعي وإدراك للشعر والنقد.
- يتميز الكتاب بنقل مؤلفه لآراء المعلم والمرشد لابن سناء الملك وهو القاضي الفاضل، كما نقل فيه تعليقات ابن سناء على هذه الآراء.
- يتميز الكتاب بنقل آراء ابن سناء الملك حول بعض الشعراء، وحول التوشيح وغيرها.
- يسلِّم المؤلف بآراء ابن سناء الملك ثم يناقشه من خلالها.

- يستشهد المؤلف بشعر ابن سناء، ثم يحلل الأبيات، ويوضح موطن الخلل، كما يبين مراحل الجهد العقلي التي سلكها ابن سناء الملك في أبياته.

أما عيوب الكتاب؛ فقد لاحظت أن العناوين التي وضعها المؤلف تحت الفصول غير فاصلة، إذ لاحظت أن المؤلف يدخل في الموضوع الجديد قبل العنوان في مواضع مختلفة، وإن كان هذا يشير إلى أن المؤلف في كتابه سلس مسترسل فأجزاء الكتاب يُسْلِم بعضها إلى بعض.

ومن الملاحظات؛ أن المؤلف حين طرح مشكلة الازدواج اللغوي، لم يبين الحل الذي كان بإمكان الشاعر أن يسلكه، وإن كان قد أشار بأن الشاعر لم يشعر أن اللغة ملكه، فكأنه يلمح بأن الحل (أن يشعر بأن اللغة ملكه ويعبر بسجيته دون تكلف)، ولكنه لم يضع هذا الحل أساسًا يتحدث عنه بتفصيل.

%%%

مما سبق نصل إلى أهمية دراسة شعر ذلك العصر قبل الحكم عليه بالانحطاط والجمود، وهذا ما فعله الدكتور عبد العزيز الأهواني، ولكن لايزال ذلك العصر يفتقد إلى الدراسات الجادة.

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين.

[i] . الموسوعة http://alencyclopedia.com/7821 .

[ii] . الأعلام للزركلي: ٨/ ٧٠– ٧١.

[iii] . ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر، عبد العزيز الأهواني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، سنة ١٩٨٦م : ٦ .

[iv] . المرجع السابق: ١٢.

[v] . المرجع السابق: ٢٠.

[vi] . المرجع السابق: ٣٦– ٣٧.

[vii] . المرجع السابق: ٣٩.

[viii] . المرجع السابق: ٤١.

[ix] . المرجع السابق: ٤٤.

[x] . المرجع السابق: ٤٥.

[xi] . المرجع السابق: ١٠٧.

[xii] . المرجع السابق: ٩٥.

[xiii] . المرجع السابق: ٩٦.

[xiv] . المرجع السابق: ١٠٠.

[xv] . في المسألة تفصيل، يرجع لها في كتب الفقه.

[xvi] . ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر: ١٠٢– ١٠٣.

[xvii] . المرجع السابق: ١٠٩.

[xviii] . المرجع السابق: ١٠٩–١١٠.

[xix] . المرجع السابق: ١٨٩– ١٩٣.

[xx] . المرجع السابق: ١٤٨.

[xxi] . المرجع السابق: ١٥١.